التصوير البياني
بين
ابن الرومي وابن المعتز

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمد الأمير محمد السيد
الأستاذ المساعد للبلاغة والنقد بالكلية

التصـــــوير البيـــــانى

بـــــين

ابـن الـــرومى وابـن المعتـــز

الحمـد لله رب العـالمين ، والصـلاة والسـلام على الرسول الأميـن ، سيدنا محمـد وعلى آلـه وصـحبه أجمعيـن •

وبعـــد ••

فقـد أشـاد البلاغيون بصـور بيانيـة امتدحوها ، وأعجبوا بهـا كالصـور التى تجمـع بين طرفين متباعدين فى الجنس بعـلاقة بينـة ، وكالتى تشـتمل على عنصـر التفصيل ، وكالتى تضـمنت عنصـر التخييـل (١) •

ومن خـلال قـراءاتى لبعض دواوين الشعراء لاختيار شواهد لهـذه الصـور وجدتنى منجـذبا نحـو بعض صـور التشـبيه والاستعارة ، وحـاولت ـ جاهـدا ـ تعليـل ذلك ، فوجـدت أن بعضها يرجـع الى توفيق الشـاعر فى توظيفها لإبـراز أحاسيسه ، أو لتوضـيح الفـكرة برسـم صـورة لهـا بطريقة فنيـة ، أو الى صـناعة الشـاعر فى طريقته التصويرية بمـا ينتقيـه من ألفـاظ •

---

١ ـ انظـر ـ مثـلا ـ اسـرار البـلاغة جـ ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ ، جـ ٢ ص ١٥ ، ١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ تعليق د. خفـاجى .

وليس معنى ذلك أن البلاغيين لم يصلوا الى هذا الوعى . بل تنبهوا إليه ، وبعضهم وضح علة الجمال ، وقوة التأثير كالإمام عبد القاهر فى أسرار البلاغة ، ولكنى بسطت قولهم ، ووضحت مجمله ، وصغته بأسلوب عصرى ، واستنتجت منه بعض أسرار الجمال لهذه الصور .

وهذه الدراسة ـ مع كونها تطبيقية ـ تمتد الى صناعة الشعراء فى طرائقهم التصويرية والتعبيرية ، إذ تظهر قدراتهم فى كشف العلاقات بين الأشياء ، وتفننهم فى الصياغة البيانية .

وتبرز جمال الصور البيانية بما تحتويه من فنية قصد إليها الشعراء ، وما تعكسه من أحاسيس تبعث مثلها فى نفوس المتلقين .

وتنمى التذوق البيانى لدى الباحث ، وهذا يساعده على إدراك الصواب فى الحكم حينما يقوم صورة بيانية ، إذ إن هذه الدراسة تتطلب الطواف حول نتاج الشعراء ، والوقوف الطويل أمام بعض الأبيات لاستشفاف ما يهدف إليه الباحث مستجمعا عقله ووجدانه .

وهذه الدراسة تحتاج الى بعض نتاج شاعرين فأكثر لإظهار الفرق بين صناعة شاعر وآخر ، وطريقة الشعراء فى توظيف هذه الصور .

وتحتاج ـ أيضاً ـ الى الاستعانة ببعض نظريات النقد

أحيـاناً ـ للكشف عن جمـال الصـورة البيانية ، ولمـا تتطلبه من تحليـل وتعليـق .

وقـد آثرت أشـعار ابن الـرومى (٢) وابن المعتـز كحقـل لهـذه الدراسـة ، فاقتطفت من شعرهما ما يحتـاج إليـه هـذا البحـث لمـا لهمـا من قـدرة فائقـة فى التصـوير والصـياغة ، ولأنهمـا عاشـا فى القـرن الثالث الهجـرى الذى يعـد من أزهى عصـور العـلم والمعـرفة ، إذ كـان جامعـاً لأشـتات الثقـافة بفروعهـا ، كثـير الأدب والعـلوم ، كثـير الشـعر والمعنيين بالأشـعار ، وعـاش فى هـذا القـرن وبخاصـة أوائله ووسـطه نخبـة من جلـة الشـعراء النـابهين كـأبى تمـام والبحتـرى والحسـين بن الضـحاك وعلى بن الجهـم ودعبـل الخـزاعى ، وعـاش فيـه مـع هـؤلاء مئـات من قـالة الشـعر المحسـنين

---

٢ ـ ابن الرومى هـو عـلى بن العباس بن جـريج ، وينتمى من جهـة ابيـه الى الـروم ، ومن جهـة امـه الى الفـرس . ولـد فى بغـداد سـنة ٢٢١ هـ ـ ٨٣٥ م ولـم تكـد تتقـدم بـه السـن حتى توفى ابـوه فكفلتـه امـه وأخ أكبـر منـه ، واتجـه الى الثقافة المعاصرة لـه والى الشـعر وروايته ، ولـم يلبث أن جـرى الشـعر على لسانه فتهادته النوادى والمحـافل فى بغـداد ، كمـا تهـاداه الوزراء ، فمدحهم ونـال عطـاءهم ، وابتسمت لـه الحيـاة ، وسرعـان ما عبست لـه ؛ فماتت أمـه ومـات اخـوه ، وتزوج وانجب اولادا الا ان القـدر اخـذ يعصـف بهـم واحـدا وراء الآخـر ، وماتت زوجته ، وتوفى سـنة ٢٨٣ هـ أو ٢٨٤ هـ ـ ٨٩٧ م .

امـا ابن المعتـز فهـو ابـو العبـاس عبد الله بن المعتـز بن المتوكـل بن المنعـم بن هـارون الرشيد ، واختلفت الروايات فى مولده ، والراجـح منهـا انـه ولـد فى مدينة سـامراء فى شعبان سـنة ٢٤٧ هـ ـ

=

وغـير المحسـنين والمحترفين وغـير المحترفين • وابن الـرومى وابن المعتـز من مشـاهير هـذا العصـر وهمـا من المجيدين فى فـن الشـعر وطـرق القـول •

* * *

العوامل المؤثـرة فى شعرهما وتصويرهما :

إذا كانت دراسـة الأدب والشـعر تتطلب الإلمـام بالعوامل المؤثـرة فى كـل من الأديب والشـاعر فـإن ذلك ـ أيضـاً ـ تتطلبـه دراسـة الصـور البيانية ، لأن هـذه الصـور من عناصر العمـل الأدبى •

فـكل شـاعر وكـل أديب تتجمـع حـول حيـاته ، وحـول شاعريته عـوامل شـتى تجعـل منـه شـاعرا مجيـدا ، ومصورا بارعـاً ، وتغـرس فيـه النبـوغ والتفـوق ، وقـد تجمعت لكل منهمـا عـوامل كـان لهـا بالـغ الأثـر فى شعرهما وتصويرهما •

=

٨٦١ م من أم روميـة وعاش حيـاة مترفـة بعيدة عن البـلاط العباسى ، بيـد أن نفسـه تاقت الى الخـلافة بعـد وفـاة المكتفى ، إذ بعـد المقتدر سـنة ٢٩٥ هـ وأصبحت أمـه بمـن حولهـا من النسـاء والخصيان تدير دفـة الحـكم غرنت عيـن ابن المعتـز الى الخـلافة ، فـدبر مؤامرة مع بعض الرؤسـاء والكتـاب فى ربيـع الأول سـنة ٢٩٦ هـ فخـلع المقتدر وتولى الخـلافة بلقب المرتضى ، بيـد أن ذلك لـم يدم سـوى يوم وليلة ، إذ تغلب أصـحاب المقتـدر على حـزبه وأعـادوه الى كـرسى الخـلافة واختفى ابن المعتـز عند ابن الجصـاص غـير أن أنصـار المقتدر عرفوا مخبـأه فأخـذوه وقتـلوه فى ربيـع الثـانى من نفس السـنة .

أولا ــ العوامل التى صقلت شعر ابن الرومى (٣) وتصويره :

١ ــ **عامل الوراثة :** وهو عامل له تأثير كبير فى تكوين الشخص خلقة وفكرا وابن الرومى من أب رومى وأم فارسية ، وافتخر بذلك كثيرا فى شعره مثل قوله :

كيف أغضى على الدنية والفر
س خئولى والروم أعمامى

واسم جده جريج ، أو جورجيس وهو اسم يونانى ، لذا نجده يعتز بيونانيته ، يقول :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجى
ومجد وعيدان صلاب المعاجم

فمن الطبيعى أن يتأثر بهذا العامل فى شعره . ويذكر العقاد أن يونانيته لونت شعره ألواناً خاصة أفردته من شعراء العرب (٤) ، ويذكر أن عبقريته يونانية ، يقول (٥) :

« إذا قسمنا العبقريات الفنية الى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومى أنها عبقرية يونانية على المعنى

---

٣ ــ بدأت بابن الرومى لانه أسبق وجودا .

٤ ــ مقدمة العقاد للمختار من ديوان ابن الرومى نشر كيلانى .

٥ ــ ابن الرومى ص ٢٣٣ ، ط. دار الكتاب اللبنانى .

المفهـوم بين قـراء الآداب من هـذه الكلمـة ، إذ لا نعرف صفة لعبقـرية ابن الرومى هى أوجـز ولا أبين من هـذه الصفة المجموعة فى كلمـة واحـدة ، فـإنه كـان محبـاً للحيـاة فى خفـة وطفولة وأريحية دائمـة كالحب الذى عهـدناه فى جمـلة الفنون اليونانية ، وكـان مشخصـا لمحاسن الطبيعة وعناصرها كمـا شخصتها أساطير اليونان ، وولدت منهـا بنـات المـاء وعـرائس الغـاب وأربـاب السـحب والبحـار وغيرهـا من ولائـد الذوق والخيـال ، وكان مأخوذا بالجمـال فى كـل شىء كمـا أخـذوا بـه فى كـل شىء ».

ولا يعنى العقـاد بكلامه هـذا أن عبقرية ابن الرومى وراثية ، وإنمـا يعنى أن ابن الرومى شـبيه بالعباقرة اليونانيين فى تفكيرهم ونظرتهـم الى الطبيعة ، وتشخيصها ، وحبهـم للجمـال ، لأنـه يقـول بعـد ذلك (٦) (أمـا أنـه كـان كـذلك لأنـه من سـلالة اليونان فذلك قـول لا نجـزم بـه ، ولا نجـزم بنفيـه ، لأنـه يستطيع أن يكـون كذلك ولـو لـم يـكن من تلك السـلالة التى اختلطت فيهـا سلالات الشـرق والغـرب والشمال والجنوب) .

لا أحـد إذاً يستطيع أن يجـزم بأن عبقـرية ابن الرومى وراثيـة ، وفى الوقت نفسـه لا أحـد يستطيع أن ينفى الوراثـة

---

٦ ـ المرجـع السـابق ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

لوجـــود هـــذا الشـــبه الواضـــح فى التفـــكير وحـــب الطبيعـــة وتشخيصها وإجـــراء الحـــوار معهـــا ، ولكن يمـــكن القـــول بأن عـــامل الوراثة أوجـــد فيـــه شـــيئا من هـــذه العبقرية ، لأن هناك عـــوامل أخـــرى تآزرت فى تكـــوين هـــذه العبقـــرية .

٢ ــ **الثقـــافة اليونانية الإسلامية** التى ثقفهـــا الشـــعراء فى القـــرن الثـــالث الهجـــرى ، إذ شـــجع الخلفـــاء (٧) على ترجمـــة العـــلوم من الحضارات الأخـــرى كاليونانية والفارسية والهنـــدية . ولعـــل تأثـــره بالثقـــافة اليونانية المكتسبة أكثـــر من تأثره باليونانية الأصـــيلة .

٣ ــ **الثقافة الإسلامية والعربية** التى طبعته بطابعها الفسيح ، وأكســـبته ذوقـــاً ساميا ، وأسلوبا رائعـــا ، وتصويرا بديعـــا .

٤ ــ **الأحـــداث التى مـــر بهـــا** من مـــوت أبيـــه ثم أمـــه وأخيـــه وأولاده وزوجتـــه ، فـــلم يشـــعر بشىء من الفـــرح بالحيـــاة ، بـــل شـــعر كأنها كـــأس مـــر يتجـــرعه فانقلب ساخطاً على كـــل من حـــوله حتى على الذين أكرمـــوه ، وفسحوا لـــه فى مجالسهم ، وأغدقـــوا عليـــه من أموالهم .

---

٧ ــ من اشـــهر الخلفـــاء المشجعين على الترجمـــة أبـــو جعفـــر المنصـــور ، والرشـــيد ، والمـــأمون الذى يعتبـــر عصـــره أزهى عصـــور الترجمـــة .

٥ ــ حـدة المـزاج ، واعتلال الطبـع ، يتطـير ويتشـاءم ويبـالغ فى ذلك ، يقـول الزبيدى عنـه : « كـان لا يدع التطـير والتفـاؤل فى جميـع حركاته وتصرفـه» (٨) • ويقص الـرواة فى طـيرته أقاصيص غـريبة (٩) •

ويتحدث العقـاد عن مـزاج ابن الـرومى وأثـره فى اسرافه فى كـل شهواته النفسـية والجسـدية وأثـر هـذا الاسراف ذاته فى مزاجـه ، وأثرهمـا معـا فى وسوسته وطـيره فى صفحات كثيرة من كتـابه (ابن الرومى · حيـاته من شـعره) يقـول : « ولعـل الأصـوب أن نقـول : إن ابن الرومى وقـع من مزاجـه وإسرافه فى حلقـة موبقـة لا يدرى أين طرفاها ، فمزاجه أغـراه بالإسراف ، والإسراف جنى على مزاجه ، فـإن هـذا الاسراف الموكل بالاستقصاء فى كـل مطـلب ورغبـة خليـق ولا غـرو أن يسـقم جسمه وينهك أعصـابه ويتحيف صـوابه ، بيـد أنـه لا يسـرف إلا وفى جسمه سـقم ، وفى أعصـابه خـلل ، وفى صـوابه شـطط لا يكبـح جمـاحه » (١٠) •

---

٨ ــ طبقـات النحـويين ص ١٢٦ ط. الخـانجى .

٩ ــ انظر فى ذلك زهـر الآداب ١٧١/٢ ــ ١٧٧ . ومعاهد التنصيص ٤٣/١ والعمـدة ٥٣/١ .

١٠ ــ ابن الرومى : حيـاته من شـعره ص ١٠١ .

ويقـول : « ومن أصحاب هـذا المـزاج من يخاف الفضـاء ، أو يخـاف حيوانات منزليـة لا قـوة لهـا ولا ضراوة كالقـطط والكـلاب والجـرذان ، فابن الرومى واحـد من هـؤلاء نحسـب أنـه كـان مستعدا لهـذه الهـواجس طـول حيـاته فى صـحته ومرضـه فى شـبابه ومشيبته » (١١) .

ويقـول : « ولكنـه مـع استعداده للهـواجس فى شـبابه ومشـيبه قـد تمـادى بـه الوسواس فى أعـوامه الأخـيرة حتى أصـبح آفـة مستأصلة ، وغلبت على أقـواله وأفعـاله جميعـا ، فليس لـه عنهـا محيص ، فأفـرط فى الطـيرة ، واشـتد خـوفه من المـاء ، لا يركبـه ... وصـور لنـا ما يعتريه من خوف المـاء تصـويرا لا يـدل إلا على حـالة مرضـية ، ولـو كـان التشبيه فيـه من مجـاز الشـعر وتمـويه الخيـال . وهـذا بعض ما قاله فى مخـاوفه وأهـوال ركـوبه :

ونـو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه
ولكنـه من هـوله غـير ثابـت

. . . . . .

أظـل إذا هـزته ريـح ولألأت
له الشمس أمواجاً طوال الغوارب

---

١١ ـ المرجـع السـابق ص ١٠٢ .

كـأنى أرى فيهن فرسـان بهمـة
يليحون نحوى بالسيوف القواضب

والمـاء الذى يصـفه هـو مـاء دجلـة ، لا مـاء البحـر ولا مـاء المحيـط » (١٢) .

وليس من ريب فى أن هـذا المـزاج المعتـل الحـاد كـان يؤثر فى شـعره وتصـويره بجـانب أصـله وثقافته .

ثانيا ـ العوامل التى أثرت فى شـعر ابن المعتز وتصويره :

عـاش ابن المعتـز حيـاة خاصـة تختلف عن حيـاة الشعراء فى عصـره . هـذه الحيـاة طبعت شـعره بخصوصية ميـزته ، ولونتـه بألوان زاهيـة وخطـوط واضـحة ، وجعلته من أشـهر الناس فى الأوصاف والتشبيهات . يقول أبـو الفرج الأصبهانى (١٣): « وممن صـنع من أولاد الخلفـاء فأجـاد وأحسـن ، وتقدم سائر أهـل عصـره فضـلا وشرفـا وأدبـاً وشعرا وظرفـا وتصرفا فى سـائر الآداب أبـو العبـاس عبد الله بن المعتـز ، وأمـره مـع قـرب عهـده بعصرنا هـذا مشـهور فى فضـائله وآدابـه شهرة يشـرك فى أكثـر فضائله الخـاص والعـام » .

---

١٢ ـ نفس الصـفحة .

١٣ ـ اغـانى ، ط. دار الكتب ١٠/٢٧٤ .

هـذه الشاعرية الفـذة لـم تكن لتـأتى الا بتضـافر عوامل شـتى تذكيهـا وتبعث فيهـا البديـع من التعبـير ، والابتكار فى التصـوير ، ومن أهـم هـذه العـوامل :

١ ــ **حيـاة التـرف** : فـابن المعتـز نشـأ فى رغـد من العيش ، إذ درج على ميـادين من البنفسـج والنرجس . وتقـلب فى طيـات الفراش الوثيرة تحـوطه لخـدم ، ويحف بـه السرور والطـرب .

وهـذه الحيـاة كـان لهـا تأثـير بالـغ فى تكـوين ذوقه ، وقـد انعكس ذلك على شـعره وأوصـافه وتشبيهاته ، وتراكيبه التعبيرية واختيـار ألفـاظه .

٢ ــ **ثقافتـه** : تهيـأت لابن المعتـز سـبل أنواع الثقـافة كلهـا ، إذ تعهـد بالتعليم والتثقيف منـذ طفولته ، وقـام بتأديبه نخبـة من كبـار العلماء فى اللغـة وآدابها ، ومن هؤلاء أبو جعفـر محمـد بن عمـران بن زيـاد الضبى صـاحب كتـاب القـراءات والنحـو ، وأبـو العبـاس المبـرد الذى انتهت إليـه مدرسـة البصـرة ، وثعلب الذى انتهت إليـه مدرسـة الكـوفة ، ومحمـد ابن هبـيرة وكـان ضليعاً فى اللغـة وغريبهـا ، وأبـو الحسـن أحمـد بن سـعيد الدمشقى .

وهيأت لـه جـدته مكتبـة عـامرة بالعلوم والآداب ، وأضاف إليهـا ما وقـع تحت يـده من الكتب المختلفـة فصارت مثـواه ومرجعـه وأحـب المجـالس إليـه ، فانكب عليهـا يعـب من علوم العـرب وآدابهـا ، وعلوم القرآن والحديث ، ومن تراث الأقدمين ممـا ترجـم من عـلم وأدب وفلسـفة .

وأصـبحت اللغـة عنـده أداة طيعـة تركض لـه المعـانى الموهـوبة فيهـا ركضـا ، فتظهـر فيهـا صـور شعرية لهـا نغـم جميـل ، إذ إنـه يتصـيد الكلمات المعبـرة عن الأحاسيس ، فـابن المعتـز لا يخـرج عن طبيعـة فحول الشعراء المجيدين ، فلـه من سـعة الخيـال والتمهـر فى التصـوير وإبراز المعـانى ، ودقـة الملاحظـة ، ورقـة التعبـير ، وسلامة النظـم ما يجـذب القـراء يسـيرون فى حـدائق شـعره مستنشقين روائـح عطـره متغنين بنشـيده .

وكمـا بـرز عبد الله بن المعتـز فى الشـعر بـرز فى النثـر والموسيقى ، فيحدثنـا صـاحب الأغـانى(١٤) أنـه بدت فيـه منـذ نشـأته نزعة إلى الغنـاء والموسيقى ضاعفت حسـه بالجمال كمـا ضاعفها ترفـه ونعيمـه ، وذكـر لـه كتبـا فى الغنـاء كمـا ذكـر لـه أدوارا غنى فيهـا .

---

١٤ — ١٠/٢٧٦ .

واطلع ابن المعتز على الآراء الوافدة من حضارات الأمم التى كانت تموج بها البطاح وسهول الرافدين ومدنها .

وتشير كتب نقد القدماء الى أن منزلته من الشعراء شريفة ، وأنه أشعر بنى هاشم ، وأنه فخر الخلفاء ، وصاحب الشعر الرقيق ، والنشيد المنيع الرفيع ، وأرق الناس فى الأوصاف والتشبيهات .

الموهبة التصويرية :

أولا — موهبة ابن الرومى التصويرية :

لقد اعتمد ابن الرومى فى شعره ضمن ما اعتمد على فن التصوير ، إذ كانت لديه قدرة عجيبة على ملاحظة دقائق الأشياء ، وتصويرها تصويرا رائعاً ، بحيث لو قرأنا تصويرا له ، أو سمعناه تتمثل أمامنا تلك الأشياء المصورة ، وكأننا نراها ونحسها .

وقدرته التصويرية امتدت الى جوانب الحياة من حوله ، فصور الطبيعة ومباهجها فى الربيع وغير الربيع ، وصور الأطعمة تصويرا يتناسب مع شرهه لها ، وكان لا يترك منظرا فى الطريق من مناظرها دون أن يرسمه بريشته ، يقول

العقـاد (١٥) : (غلـت أعـرف فيمن قـرأت لهـم من مشـارقة ومغـاربة ، أو يونان أقـدمين ، وأوربيين محـدثين شاعرا واحـدا لـه من الملكة المطبوعة فى التصـوير مثـل ما كـان لابن الـرومى فى كـل شـعر قـاله ، مشبها أو حاكيـاً على قصـد منـه أو على غـير قصـد ، لأنـه مصـور بالفطـرة المهيـأة لهـذه الصناعة) .

ولـه قـدرة غريبة على تصـوير الأحاسيس ، وتتجمع عاطفته وبراعتـه فى التصـوير حين يصـف بعض المغنيـات ، وقصـيدته فى وحيـد المغنيـة إحـدى درره .

ولا تقـل صـوره فى الهجـاء والسخرية روعـة عن صـوره فى الطبيعـة ومباهجها ، وعن صـوره فى وصـف المطـاعم وحيـاة النـاس فى بغـداد وما يطعمونه وما يلبسونه .

والتصـوير — كمـا هـو معـلوم — لـون وشـكل ومعنى وحـركة ، وتمثيـل الحـركة أصـعب ما فيـه ، لأنهـا تتوقف على ملكة الناظـر ، ولا تتوقف على ما يـراه بعينـه ، ويدركـه بظاهر حسـه ، وابن الرومى كـان يجيد تمثيل هـذه الحركة المستعصية ، تأمـل قـوله يصـف حـركة الكتـان فى حقـله :

وجلس من الكتان أخضـر ناعـم
توسـنه دانى الربـاب مطـير (١٦)

---

١٥ — ابن الرومى ص ٢٢٧ .
١٦ — انظـر البيتين فى المرجـع السـابق ص ٢٢٨ .

إذا درجت فيـــه الشمال تتـــابعت

ذوائبـــه حـــتى يقـــال غـــــدير

شـــبه ذوائب الكتـــان وهى تتلاحق مـــع الريـــح بالغـــدير ، وفيـــه جمـــع بين متبـــاعدين فى الجنس .

وتأمـــل وصـــفه للحـــركة البطيئـــة فى ســـير الســـحاب :

سحائب قيست بالبـــلاد فألفيـــت

غطـــاء على أغوارهـــا ونجودهـــا

حدتهـــا النعـــامى مثقلات فأقبلت

تهادى رويدا ســـيرها كركودها (١٧)

فهـــو هنـــا يشـــبه حـــركة السحاب البطيئـــة بركودهـــا . لأنهـــا أطبقت على أغـــوار البـــلاد ونجودها ، وهـــذا التشـــبيه فيـــه طـــرافة لجمعـــه بين المتباينين (الســـير والركـــود) .

وكمـــا صـــور الحـــركة صـــور السكون ، تأمـــل قـــوله فى وصـــف مصـــلوب :

كـــأن لـــه فى الجـــو جيلا يبوعـــه

إذا ما انقضى حيل أتيح لـــه حيل

---

١٧ ـ انظـــر البيتين فى المرجـــع الســـابق نفس الصـــفحة .

يعـانق أنفاس الريـاح مودعـاً
وداع رحيل لا يحط لـه رحـل (١٨)

يقـول الإمـام عبد القاهـر : « فاشتراطه أن يكـون لـه بعـد الحبـل الذى ينتهى درعـه حبـل آخـر يخـرج من بـوع الأول إليـه كقـوله (مواصـل لتمطيـه من الكسـل) (١٩) فى استيناء الشـبه والتنبيـه على استدامته ، لأنـه إذا كان لا يزال يبـوع حبـلا ولـم يقبض باعـه ولـم يرسـل يـده • وفى ذلك بقـاء شـبه المصلوب على الاتصـال » • ونجـد أمثـال ذلك كثيرا فى صـور ابن الرومى ممـا يـدل على قـدرته التصويرية ، وتصيده الشـبه بفطنـة بالغـة •

ثانيا ــ موهبـة عبد الله بن المعتـز التصويرية :

كانت لابن المعتـز ملـكة تصويرية فاقت الكثـير من الشعراء ، فـكان بارعـاً فى صـناعة التشبيهات ، وهى برعـة نرى اثارهـا

---

١٨ ــ انظـر البيتين فى أسـرار البـلاغة جـ ٢ ص ٣٧ ، تعليق د. خفـاجى •

١٩ ــ يقصـد انـه شـبيه بقـول الشـاعر :

او قـائم من نعـاس فيـه لوثتـه
مواصـل لتمطيـه مـن الكسـل

شـبيه بـه فى الاستقصاء •

فى كل مكان من ديوانه ، إذ تظهر هذه الصور التشبيهية فى بعض قصائده على هيئة صفوف متلاحقة ، ففى كل جانب منها صورة بيانية ، وهى صور أغلبها طرافة ، وكلما جمع منها باحث طائفة خرجت إليه ألوان تحكى ألوان الطيف

وقد أغرم عبد الله بن المعتز بلون التشبيه ، وشغف به شغفاً شديدا ، فقد صرف إليه همه ، وعقد عليه عزمه ، وتفرغ فيه ، فلونه تلوينا فسيحاً ذا نواح متعددة ، حتى عرف به ، وظهر فيه سبقه على شعراء عصره .

وقد أمدته حياته وما فيها من ترف ومشاهد بصور لم يألفها معاصروه من الشعراء ، يقول الباقلانى : « وأنت تجد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر ، وقد تتبع فى هذا ما لم يتتبع غيره ، واتفق ما لم يتفق لغيره من الشعراء » (٢٠) . ويقول ابن رشيق : « مع أنه لابد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناولها كأبى نواس فى الخمر ، وأبى تمام فى التصنيع والبحترى فى الطيف ، وابن المعتز فى التشبيه (٢١).

وجاء فى معاهد التنصيص فى ترجمة ابن المعتز (هو أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات) (٢٢) .

---

٢٠ ـ إعجاز القرآن ج ١ ص ١٥٦ .
٢١ ـ العمدة ج ١ ص ٢٢٥ .
٢٢ ـ ج ١ ص ١٤٦ .

وعلى الرغم من صعوبة التشبيه واحتياجه الى مجهود شاق ، وتعب مضن كما قال ابن رشيق « وأشد ما تكلفه الشاعر صعوبة التشبيه لما يحتاج إليه من شاهد العقل واقتضاء العيان (٢٣) فقد عكف ابن المعتز عليه ، وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده مستمدا مقوماته من حياته التى لم تتح لشاعر ، فأظهر فيه براعة معدومة النظير بما استنبطه من ألوان رائعة وصور خلابة .

ومن يقرأ ديوان ابن المعتز يقف على صور جديدة للتشبيه ذات ألوان متعددة تفيض بالخيال الرائع ، وتبرز مكامن هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وخالطها ، وما فيها من مداهن التبر وأوانى الفضة ، وصحائف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة واللآلىء النادرة حتى ليخيل الى القارىء أن هذا التصوير — مع سماحته وعذوبته وعدم تكلفه — قد استحال على يده لونا آخر جديدا ، وذلك هو سر تفرده فيه وبلوغه أعلى القمم .

وصور ابن المعتز واضحة ، ليس فيها غموض ، فلم يغص بها فى بحار الفلسفة والثقافة كما فعل أبو تمام ، ولم يمزج صوره بألوان البديع فجاءت بعيدة عن التعقيد تفيض رقة وعذوبة . هذه هى طريقته فى صوره البيانية على الرغم من كثرتها ، ومن ثم عاب عبد الله بن المعتز طريقة

---

٢٣ — العمدة ج ١ ص ٢٢٥ .

أبى تمام الذى استبد به الزخرف العقلى وطغى على بديعه ، ولم يرقه صنيعه ولذلك يؤلف رسالة يحصى فيها محاسن أبى تمام ومساوئه فى صنعته ، وقد نقل منها صاحب الموشح (٢٤) بضع عشرة صفحة يعيب فيها أشياء من جناس أبى تمام وطباقه واستعاراته • وجملة المعايب تدور حول الإبعاد فى الفكرة والتعسف فى الصنعة ، والبعد عن مألوف العربية السمحة ، والاشاحة عن مواردها العذبة • وكانت هذه الرسالة أولى الدعائم — فيما نعلم — التى اعتمد عليها خصوم أبى تمام ، وحاملو لواء التنقيض والغض من شأنه كالآمدى وغيره •

توظيف التصوير عند الشاعرين :

أولا — عند ابن الرومى :

كانت لابن الرومى قدرة عجيبة على توظيف التشبيهات والاستعارات لخدمة فكرته وتوصيلها الى المتلقين حاملة مشاعره لتبعث مثلها فى نفوسهم • ومن منا لا يعجب بصوره وينجذب نحوها ؟ ومن منا لا يتأثر بها ؟

والتوظيف عنده — فى الغالب — تشخيص ، أو تجسيم ، أو توضيح فكرة ، فهو يأتى بالصور البيانية إما لتشخيص

---

٢٤ — ص ٤٠٧ — ٣٢٠ •

الجمادات ، فيخلع عليها صفات الأحياء ، ويجعلها تشعر وتحس وتمتلىء بالانفعالات ، وإما لتجسيم المعنويات بجعلها محسة بحيث تصير فى متناول الحواس ، وإما لتوضيح فكرته برسم صورة لها من المشاهد ، فتصير لوحة فنية رسمت بيد فنان ماهر .

وقد استخدم ابن الرومى التشخيص استخداما واسعا فى شعر الطبيعة (فيشف وصفه لها عن شغف الحى بالحى ، وشوق الصاحب الى الصاحب ، وتسمع من تشبيهه بها رنة طرب ، أو شجى لا يخرج إلا من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة ، قد نفذت الى طويتها ، وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور) (٢٥) .

يقول فى وصف الغروب :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت
على الأفق الغربى ورسا مزعزعا (٢٦)
وودعت الدنيا لتقضى نحبها
وشول باقى عمرها فتشعشعا (٢٧)

---

٢٥ — ابن الرومى ص ٢٢٠ .

٢٦ — رنق : أطال النظر فى ضعف ، والمراد : قاربت الغروب . نفضت : نثرت . ورسا : الورس : نبات أصفر . مزعزعا : متحركا .

٢٧ — نحبها : اجلها . شول : تناقص . تشعشعا : انقضى إلا اقله .

ولاحظت النـوار وهـي مريضـة

وقد وضعت خدا على الأرض أضرعا (٢٨)

كمـا لاحظت عـواده عين مدنف

توجـع من أوصا بـه ما توجعـا (٢٩)

وظلت عيون النـور تخضل بالندى

كما اغرورقت عيـن الشجى لتدمعا (٣٠)

يـرا عينها صورا إليهـا روانيـا

ويلحظن ألحاظـاً من الشجو خشعا (٣١)

وبيـن إغضـاء الفـراق عليهمـا

كأنهمـا خـلا صـفاء تودعـا (٣٢)

---

٢٨ — النـوار : نـوع من الأزهـار . اضرعـا : فيـه ضراعـة وخضـوع .

٢٩ — مدنف : مريض ثقـل عليـه المـرض . أوصـابه : اوجاعه جمـع وصـب .

٣٠ — النـور : الزهـر . تخضـل : تبتـل . اغرورقت : امتـلأت بالدمـوع . الشـجى : الحـزين .

٣١ — يراعينهـا : ينظـرن اليهـا . صـورا اليهـا : مائـلات نحوهـا . روانيـا : ناظـرات . خشـعا : خائفـات .

٣٢ — بين : اظهـر . إغضـاء : اطبـاق الجفنين . خـلا : مثنى خـل وهـو الصـديق المخلص .

تضمن هـذا النص كثـيرا من الصـور البيانية التى كشـفت عن آلام الشـاعر المسيطرة عليـه ، فمنهـا الاستعارة المكنيـة فى قـوله (رنقـت شمس الأصـيل) تصـور الشمس عند الغـروب إنسـاناً ينظـر فى ضـعف ، وفيهـا إيحـاء بالفتـور • وفى (ورسـا) استعارة تصريحية تصـور الضـوء عند الغـروب زهرا أصـفر •

وفى الأبيـات الثـانى والثـالث والرابـع صـورة ممتدة فيها تشخيص للشمس حيث تخيلها مريضـا يحتضـر وقـد جلس حوله زائـروه •

وفى الأبيـات الثلاثة الأخـيرة صـورة ممتـدة ـ أيضـا ـ تشخص الزهـر وتجعـله حبيبـا يبكى لفـراق حبيبتـه •

فتشخيص ابن الرومى للطبيعـة مسبوق بشعور واسـع ودقيق ينعكس على الشىء المشخص ، فنستشف هنـا « الشعور العميـق بوحشـة الغـروب ، وما ينعكس من ذلك الشعور العميـق عـلى الشمس من ترنيـق وضراعة وانكسار ، ونظـر يائس كنظر المريض الى العـواد ، ووجـوم شـائع بينهـا وبين عيـون النـوار التى تغرورق على الأغصـان لتدمـع ، وتلحـظ ألحاظـاً خشـعا من الشـجو والإغضـاء »(٣٣) •

وتأمـل قـوله يصـف الأغصـان :

---

٣٣ ـ ابن الرومى ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

تلاعبها أيدى الرياح إذا جـرت

فتسمو وتحنـو تـارة فتنـكس

إذا ما أعارتهـا الصـبا حركاتهـا

أفادت بهـا أنس الحيـاة فتؤنس

تجـده يشخص الرياح والأغصـان ، فيشبه الرياح بإنسـان يلاعب الأغصـان بيـده ، ويحـذفه ويـدل عليـه بذكـر أحـد لوازمـه وهـو الأيـدى • كمـا صـور الريـاح ، فتخيلها بنـات تلاعب ، ويشخص الصـبا وهى الريـح اللينـة فيجعلها إنسـاناً يعـير ، ويشخص الأغصـان فيجعلها فتيـات تستعير • فهـو هنـا (لـم يفـرق بين ربيعـه وربيعها — أى الطبيعـة — وبين ثمـراته وثمراتها ، بـل خلـع من شـبابه عليهـا ، وخلع من شبابها عليه ، ومـزج بينهمـا مزجـاً لا تخـاله الا فى مهجـة واحـدة وجسـد واحـد) (٣٤) •

وتأمـل قـوله فى الصـبا وفعلهـا فى الأغصان والطيور (٣٥) :

هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه

موسوسا وتنادى الطـير إعـلانا

---

٣٤ — المرجـع السـابق ص ٢٢٢ .

٣٥ — انظـر الأبيـات فى المرجـع السـابق ص ٢٢١ .

ورق تغنى على خضر مهدلة

تسمو بها وتشم الأرض أحياناً

تخال طائرها نشوان من طرب

والغصن من هزه عطفيه نشوانا

تجده ينتشى مع الطيور والأغصان إذا بعثت الشمال بتحيتها ، فيشبه الأغصان بأناس يتناجون ، وحذف المشبه به ، ودل عليه بذكر شىء من لوازمه (فناجى) على سبيل الاستعارة المكنية ، ويشخص الطير بجعلها أناساً ينادى بعضهم بعضا وحذف المشبه به ودل عليه بذكر شىء من لوازمه (تنادى) على سبيل الاستعارة المكنية وشبه الورق بفتيات تغنى، وحذف المشبه به ودل عليه بذكر شىء من لوازمه (تغنى) على سبيل الاستعارة المكنية • وشبه كلا من الطائر والغصن بإنسان نشوان على طريقة الاستعارة المكنية •

فهذه الصور ترسم حفلا بهيجاً راقصا ثملا من الورق المغنية على الخضر المهدلة ، وهذه الخضر المهدلة تداعب الورق وتؤرجحها فتسمو بها وتهبط حتى تشم الأرض ، وكلا الطير والغصن نشوان لذلك فالطير طرب ، والغصن يهز عطفيه •

ويقول فى العوسج :

عذرنا النخل فى إبداء شوك

يذود به الأنامل عن جناه

فمـا للعوسج الملعـون أبـــدى
لنـا شـوكا بـلا ثمـر نـراه
تـراه ظـن فيـه جـنى كريمـا
فأظهـر عـدة تحـمى حمـــاه ؟
فـــلا يتسـلحن لدفـع كـــف
كفـاه لـؤم مجنـاه كفـاه (٣٦)

فيشخص النخـل فيشبهه بإنسان أو بجيش يزود عن جنـاه ، وحـذف المشـبه بـه ودل عليـه بذكـر بعض لوازمه (يـذود) على سـبيل الاستعارة المكنيـة • وشخص العوسج فشبهه بإنسـان شـرير ملعون ، وحـذف المشـبه بـه ودل عليـه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنيـة ، ويتنـاسى ذلك ويبـالغ فيرشـح الاستعارة بوصـف العوسج بالظـن وبالتسلح وباللـؤم •

وتشخيص ابن الرومى للطبيعة بهـذا الشعور الواسع الدقيق يرجـع الى حبـه لهـا ، ومزجـه بهـا حتى لا يـكاد ينظـر الى شيء إلا رأى فيـه مظاهـر الطبيعـة ، فـلا افتراق عنـده بين الطبيعـة والشـعور ، تأمـل أبيـاتا لـه يصـف فيهـا النسـاء :

أجنت لك الوجـد أغصان وكثبان
فيهن نوعـان : تفـاح ورمـان
وفـوق ذينـك أعنـاب مهـدلة
سـود لهـن من الظلماء ألـوان

---

٣٦ ـ انظـر الأبـات فى المرجـع السـابق ص ٢٢٧ .

وتحت هاتيك عنـاب تنـوح بـه
أطرافهن قـلوب القـوم قنـوان
غصـون بان عليها الدهـر فاكهـة
وما الفواكه ممـا يحمـل البـان
ونرجس بات سـارى الطل يضربه
وأقحـوان منـير النـور ريـان
ألفـن من كل شيء طيب حسـن
فهـن فاكهـة شـتى وريحـان

تجدهـا تعكس اقتـران الشعور بالإعجاب ، وامتزاج الانسان بالطبيعة ، فالنساء فى الأبيات من أغصان وكثبان خدودهن من التفاح وصدورهن من الرمان وشعورهن من العنب الأسود المهدل ، وأطرافهن من العناب ، وعيونهن من نرجس وأقحوان منـير النور ريان ، ومع كل هـذا تنتشـر منهـن رائحـة الريحـان .

ولـم يقتصـر تشخيص ابن الرومى على الطبيعة ، بـل نجـد الكثـير منـه فى شـعره ، سـواء تكـلم عن بلـد أو يـوم أو خليقـة ، أو فتـرة من العمـر ، أو معنى محسـوس أو غـير محسـوس ، فمثـلا شخص الـود ، يقـول :

أمـت ودك عبطـة فمـه
دعـه على رسـله يمـت هـرما

شخص الـود ، فشبهه بإنسـان يعـاجله المـوت ، أو يطول عمـره الى الهـرم فيمـوت ، وحـذف المشـبه بـه ورمـز إليـه بشيء من صـفاته (أمـت) على سـبيل الاستعارة المكنيـة ،

و (هـرما) ترشـيح .

* * *

وتوظيف التجسيم فى تشبيهات ابن الرومى واستعاراته لا تقل روعـة وجمـالا عن التشخيص وإن كـان قليـلا فى شـعره بالنسبة الى كـل من التشخيص ، وتوضـيح الفـكرة برسـم صـورة لهـا .

ومن صـوره التى وظفهـا للتجسـيم قـوله متحسـرا لتنكر صـديق لـه : هـو أبـو القاسـم التـوزى البـارع فى لعـب الشطرنج ، لأنـه لـم يسـاعد ابن الرومى فى حاجـة رجـاه أن يعينـه على قضائها :

يا أخى أين عهـد ذاك الإخـاء
أين ما كان بيننـا من صـفاء ؟
كشفت منـك حاجتى هنوات (٣٧)
غطيت برهـة بحسـن اللقـاء
تركتنى ولـم أكـن سـيىء الظـن أسىء الظنون بالأصـدقاء
يا أخى هبك (٣٨) لـم تهب لى من سعيك حقـا كسائر البخـلاء
أفـلا كـان منـك رد جميـل
فيـه للنفس راحـة من عنـاء

---

٣٧ ـ هنـوات : جمـع هنـة وهـو العيب .
٣٨ ـ هبـك : افتـرض .

يا أبـا القاسـم كنـت أرجـــو
ه لدهـرى قطعت متـن الرجـاء

ففى البيت الثـانى يجسـم الهنوات بتشبيهها بمنظـر قبيح ينكشف غطـاؤه على سـبيل الاستعارة المكنيـة ، وفيـه تجسـيم — أيضـاً — لحسـن اللقـاء بتشبيهه بساتر مزيف يغـطى عـلى سـبيل الاستعارة المكنيـة أيضـا .

وفى البيت الرابـع (لـم تهـب لى من سعيك حظـاً) استعارة مكنيـة تجسـم السـعى والجهـد بتشبيههما بشىء مادى يوهب .

وفى السادس (قطعت متن الرجـاء) استعارة مكنيـة جسمت الرجـاء الذى يوصـل الهـدف بتشبيهه بجمـل أو حصـان لـه ظهـر يقطـع .

* * *

وأمـا توظيف التشـبيه والاستعارة فى توضـيح الفكرة برسم صـورة لهـا فبـرع ابن الرمى فى ذلك براعـة فائقـة ، إذ كـان يحـكم الصـورة فتظهـر فى لوحـة فنية رائعـة ، تتعانق فيهـا الحـركة مـع الشـكل والظـلال ، تأمـل قـوله فى أحـدب كـان يضايقه ، ويترصـد لـه أمـام داره ليتطـير منـه :

قصـرت أخادعـه وطـال قذالـه
فكـأنه متـربص أن يصـفعا
وكأنمـا صـفعت قفـاه مـرة
وأحسن ثانيـة لهـا فتجمعـا (٣٩)

---

٣٩ — انظـر البيتين فى ابن الـرومى ص ١٠٧ .

فشبه صورة الأحدب بصورة رجل يتهيأ لأن يصفع ، ثم يتجمع ليتقى الصفعة الثانية ، ففيه توضيح لصورة الرجل الأحدب برسم صورة لها ، وهى صورة ذاك الرجل الذى يتهيأ لأن يصفع ، ثم يتجمع ليتقى الصفعة الثانية ، وهى صورة فيها براعة ، إذ وصف الشكل والحركة معاً .

وتأمل قوله فى صانع الرقاق :

إن أنس لا أنس خبازا مررت به
يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر (٤٠)

تجد أنه رسم صورة لسرعة صنع الرقاق فى الدائرة التى تحدث فى الماء نتيجة القاء حجر فيه ، فتبدأ صغيرة وبسرعة تزداد فتزداد اتساعاً ، وفيها الحركة والشكل .

ويقول فى (جحظلة) وكان مغنيا جاحظ العينين يسخر منه (٤١) :

---

٤٠ — أنظر الأبيات فى ابن الرومى ص ٦٠ .

٤١ — أنظر البيتين فى المرجع السابق ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، والمراد بالوتر وتر القوس لا وتر العود .

تخـــانه أبـــدا من قبـــح منظـــره
مجـــازيا وتـــرا أو بالعـــا حجـــرا
كـــأنه ضـــفدع فى لجـــة هـــرم
إذا شـــدا نغمـــا أو كـــرر النظرا

يشـــبه صـــورة المغنى الذى تتراءى عينـــاه الجاحظتان بصورة الضفدع الهـــرم فى لجـــة يكـــرر النظـــر ، ويغنى وفمـــه فى المـــاء .

ومن تشبيهاته التى وضحت الفـــكرة برســـم صورة لهـــا ، وفيـــه تعليـــل قـــوله يـــذم الحيـــاة :

رأيت الدهـــر يرفـــع كـــل وغـــد
ويخفض كـــل ذى زنـــة شريفة (٤٢)
كـــذاك البحـــر يرســـب فيـــه در
ولا تنفـــك تطفـــو فيـــه جيفـــة

شخص الدهـــر ، فتخيله إنســـاناً ذا قـــدرة فائقـــة على الرفع والخفض ، فرفـــع الأوغـــاد وهـــم لا يستحقون الرفـــع ، وخفض الأشراف النبـــلاء وهـــم الذين يستحقون الرفـــع ، والتمس لذلك صـــورة من الواقـــع فرآهـــا فى ميـــاه البحـــر ، إذ يرســـب فيـــه الـــدر ، وتطفـــو فيـــه الجيفـــة ، فالدر يشـــاكل ذا الزنة الشريفة ، والوغـــد يشـــاكل الجيفـــة . وبهـــذا استطاع أن يوضـــح الفـــكرة برســـم صـــورة لهـــا فى البحـــر .

---

٤٢ ـ انظـــر البيتين فى المرجـــع الســـابق ص ١٧٩ .

ويقول فى رجل مخلاف (٤٣) :

بذل الموعد للأخلاء سمحا
وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يورق للعيـ
ـن ويأبى الاثمار كل الإباء

شبه حال من وعد شخصا بقضاء حاجة ثم أخلف بحال الخلاف فى ذلك بجامع اليأس بعد الطمع ، وفيه توضيح حال ذلك الشخص الذى لا يفى بوعده برسم صورة لها توضحها ، وهى صورة ذاك الشجر الذى يورق وينتظر منه الثمر ولكنه لا يثمر .

* * *

وابن الرومى حينما يصور المحسوسات تأتى صوره رائعة ، وفى تصويره لحاسة اللون دقة وتفصيل ، إذ نجد فيه التوهج فى كل وصف يصف به الوجوه أو الأزهار أو الكؤوس أو الخمر ، أو غيرها من المناظر التى تلامس البصر بألوانها .

فيصور الوجنة الحمراء (٤٤) :

تلقى جنى التفاح فى وجناته
وترى جنى العناب فى تطريفه

---

٤٣ ـ انظر البيتين فى بغية الإيضاح ج ٣ ص ٨ ، ٩ .
٤٤ ـ انظر البيت فى ابن الرومى ص ٢١١ .

يشبه الوجنات بالتفاح ، والتطريف بالعناب ، ووجه الشبه فى الاثنين الحمرة ، وهى حمرة فيها رقة وصفاء .

ويقول فى الشقائق (٤٥) :

ترف لأبصار كحلن بها
لريين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدك فى النهار سنى
وتضىء وفى محلولك الظلم
أعجب بها شعلا على فحم
لم تشتعل فى ذلك الفحم

شبه الشقائق بالشعل ، وتناسى ذلك فنسب إليها الاضاءة ، وعجب منها ، لأنها لم تشتعل فى الفحم مع أنها عليه .

وهكذا يفطن ابن الرومى الى ألطف ما يبديه للعين من محاسن ، وأصفى ما يجلوه من دقائق المشاكلة .

وهذه الدقة التى نجدها فى حاسة البصر نجدها — أيضاً — فى بقية الحواس حينما يأتى بها مصورا ومشبها .

يقول فى وصف صوت (٤٦) :

صوت ندى وأنفاس مساعدة
كأنما نفس منهن أنفاس

---

٤٥ — انظر الأبيات فى المرجع السابق ص ٢١٢ .
٤٦ — انظر البيتين فى المرجع السابق ص ٢١٣ .

يظـــل ســـامعه لدنـــاً مفاصـــله
كأنما فتـــرت أوصـــاله الكـــاس

وشاهدنا فى البيت الثـانى ، إذ يشـبه تأثـير الصـــوت فى ســـامعه لدرجـــة أن مفاصله تفتر بتأثـير الخمـر فى تلك المفاصل ، وهـــو تشـــبيه فيـــه طرافـــة .

ويقـول فى وصـف صـوت احـدى القيـان (٤٧) :

ذات صـــوت تهـــزه كيف شـــاءت
مثلمـــا هـــزت الصـــبا غصن بان
يتثـــنى فينفـــض الطـــل عنـــه
فى تثنيـــه مثـــل حـــب الجمـــان
ذلك الصـــوت فى المسامع بحـــكى
ذلك الغصـــن فى العيون الروانى

شـــبه نغمات الصـــوت وتنويعها وما يتبـــع ذلك من تحـــكم فى رفـــع الصـــوت وخفضـــه باهتزاز غصـــن البـــان نتيجـــة ريـــاح الصـــبا ، ثـــم أخـــذ يوضـــح ما يحـــدث للغصـــن عند اهتزازه ، فينفض الطـــل عنـــه ، وهـــذا الطـــل يشـــبه حـــب الجمـــان ، فالصـــوت وما بـــه من تنغيـــم شـــبيه بذلك الغصـــن .

وهـــكذا نجـــد ابن الرومى دقيقـــاً فى وصـــف الحـــواس ، وتصويرها ، فـــإذا وصـــف اللـــون أتى بـــه ذاكيـــا متوهجـــا ،

---

٤٧ ـ انظـر الأبيـات فى المرجـع السـابق ص ٢١٣ .

وإذا وصف الصوت أحسسنا أنه بلغ فى تحسيسه له درتبة الموسيقيين الذين يتمثلون للأنغام ألوانا وزخارف تكاد تنطبع فى صفحة الخيال • وإذا وصف حاسة اللمس وضع أيدينا على الموصوف فنحسه كما أحسه • وإذا وصف حاسة الشم وصلت الى أنوفنا • إنها لدقة متناهية ، وشاعرية مصورة •

* * *

وإذا كان من ندرة التشبيه وبلاغته الجمع بين شيئين مختلفين فى الجنس مع مناسبة بينة (٤٨) فإن ابن الرومى أصاب ذلك وأجاده ، كما فى تشبيه عين جحظلة بعين الضفدع ، وصوته بصوته ، وكما فى بعض الشواهد السابقة ، وكما فى قوله فى مغنيته (٤٩) •

تضغط الصوت الذى تشدو به
غصة فى حلقها معترضة
فإذا غنت بدا فى (جيدها)
كل عرق مثل بيت الأرضة

يشبه العروق التى تبرز فى جيدها عند الغناء ببيت

---

٤٨ — انظر الأسرار ج ١ ص ٢٤٥ تعليق د. خفاجى .

٤٩ — انظر البيتين فى ابن الرومى ص ١٠٨ .

الأرضـــة ، فـــأين هـــذه العـــروق من بيت الأرضـــة ؟ ولكنه جمـــع بينهمـــا فى تشـــبيه طـــريف •

وقـــوله فى دجـــاجة :

وســـيطة صـــــفراء دينـــارية
ثمنـــا ولونـــا زغها لك حـــزور (٥٠)
عظمـــت فكـــادت أن تكـــون أوزة
ونـــوت فـــكاد إهابهـــا يتفطـــر
ظلنـــا نقشـــر لحمهـــا عن جلدها
وكـــأن تبـــرا عن لجيـــن يقشـــر

وشاهدنا فى البيت الأخـــير حيث شـــبه إزالـــة الجـــلد الأصفر عن اللحـــم فيظهـــر أبيض بصـــورة إزالـــة التبـــر عن الفضـــة فينكشـــف لونهـــا الأبيض ، ففيـــه جمـــع بين متبـــاعدين بعـــلاقة بينـــــة •

ومن تشبيهات ابن الرومى التى امتدحها الامـــام عبد القاهـــر ما جـــاء فى النـــص الآتى وهـــو من التشبيهات المقـــلوبة وفيـــه تعليـــل (٥١) :

خجلت خـــدود الورد من تفضيله
خجـــلا توردهـــا عليـــه شـــاهد

---

٥٠ ـ الغـــلام الحـــزور : الذى بلـــغ القـــوة .
٥١ ـ اســـرار البـــلاغة ج ٢ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ تعليق د. خفاجى •

لـم يخجـل الورد المورد لونـه
إلا وناحـله الفضـيلة عـاند
للنرجس الفضـل المبين وإن أبى
آب وحـاد عن الطريقة حـائد
فصـل القضـية أن هـذا قـائد
زهـر الرياض وأن هـذا طـارد
شـتان بين اثنين هـذا موعـد
بتسـلب الدنيـا وهـذا واعـد
ينهى النـديم عن القبيح بلحظـه
وعلى المدامـة والسماع مسـاعد
اطـلب بعقلك فى المـلاح سـميه
أبـدا فـإنك لا محـالة واجـد
والورد إن فكرت فـرد فى اسـمه
مافى المـلاح لـه سـمى واحـد
هـذى النجـوم هى التى ربتهمـا
بحيـا السحاب كمـا يربى الوالد
فانظـر الى الأخوين من أدناهما
شـبهاً بوالـده فـذاك المـاجد
أين الخـدود من العيون نفاسـة
ورياسـة لـولا القياس الفاسـد

ويعـلق الإمـام عبد القاهـر على الأبيـات بقـوله : « وترتيب الصـنعة فى القطعـة أنـه عمـل أولا على قلب طرفى التشـبيه .

شبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ، ثم لما اطمئن ذلك فى قلبه ، واستحكمت صورته طلب لذلك الخجل علة ، فجعل علته أن فضل على النرجس ، ووضع فى منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ، فصار يثوب من ذلك ، ويتخوف عيب العائب ، وغميزة المستهزىء ، ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ، ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصبها ، ثم زادته القطنة الثاقبة ، والطبع المثمر فى سحر البيان ما رأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له » .

* * *

ثانيا ـ توظيف التصوير عند عبد الله بن المعتز :

انفرد ابن المعتز بأن يخلع على تصويره أصباغاً ـ وبخاصة التشبيه ـ جعلته يخرج عن نطاقه الى تصوير متميز ، ووظفه فى تصوير المحسوسات موشى بألوان الطيف ، وأحياناً يوظفه فى التشخيص ، أو فى توضيح الفكرة .

والغالب عنده التصوير الحسى ، يقول عبد القاهر الجرجانى(٥٢) : « وكذلك تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات

---

٥٢ ـ اسرار البلاغة ج ١ ص ١٩٨ تعليق د. خفاجى .

بديعهـا ، لأنـك تعنى تشـبيه المبصرات بعضـها ببعض ، وكـل ما لا يوجـد التشـبيه من طـريق التـأويل ، كقـوله :

كـأن عيون النرجس الغض حولها
مداهـن در حشـوهن عقيـق

وقـوله :

وأرى الثريـا فى السماء كأنهـا
قـدم تبـدت من ثيـاب حـداد

ثـم سـاق أمثـلة أخـرى من روائـع تشبيهاته ثم قـال : «وما كـان من هـذا الجنس ، ولا تريـد نحـو قـوله :

اصـبر عـلى مضض الحسـو
د فـإن صـبرك قـاتله
فالنـار تأكـل نفسـها
إن لـم تجـد مـا تأكـله

وذلك أن إحسـانه فى النـوع الأول أكثـر ، وهـو بـه أشـهر » .

ونلحـظ أن تشبيهات ابن المعتـز المحسوسة تأتى — غالبـاً — ومعهـا لونان أو أكثـر من ألـوان الطيف فتظهـر للمتـأمل كأنها لوحـة مزخـرفة ، فمثـلا البيت :

كـأن عيون النرجس الغض حولها
مداهـن در حشـوهن عقيـق

المداهن : جمع مدهن وهو قارورة الدهن ، واضافة عيون الى النرجس من إضافة المشبه به الى المشبه إن أريد من النرجس الزهر ، وإن أريد به النبات كانت العيون استعارة للزهرة شبه عيون النرجس الغض بمداهن در محشوة بالعقيق ، ووجه الشبه اللون والشكل فهو هيئة حاصلة من اجتماع أجرام صغار بيض مستديرة على شكل دائرة بيضاء تحيط بأخرى حمراء . ونجد فى هذا التشبيه ألوان النرجس والدر والعقيق . والبيت :

وأرى الثريا فى السماء كأنها
قدم تبدت من ثياب حداد

فالمشبه الثريا تلوح فى سواد الليل ، والمشبه به قدم بيضاء ظهرت من ثياب سوداء ، ووجه الشبه ظهور صورة شيء أبيض يقرب من أن يكون مثلثاً من شيء أسود منبسط ، ونجد فيه لونين : البياض والسواد ، البياض فى الثريا وفى القدم ، والسواد فى ثياب حداد .

وقوله فى هلال الفطر (٥٣) :

ورواية الديوان لعجز البيت : فاغد الى المدام .

أهلا بفطر قد أنار هلاله
الآن فاغد على الشراب وبكر

---

٥٣ ـ انظر غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ص١١ ،

وانظـر إليـه كزورق من فضـة
قـد أثقلتـه حمـولة من عنبـر

شـبه الهـلال بزورق من فضـة مثقـل بحمـولة من عنبر ، وفيـه لـون الفضـة ولـون العنبـر .

ويقـول فى الهـلال أيضـاً :

أنظـر الى حسـن هـلال بـدا
يهتـك من أنـواره الحندسـا
كمنجـل قـد صـيغ من فضـة
يحصـد من زهـر الدجى نرجسا

شـبه حـال الهـلال وهـو يطـرد الظـلام بحـال المنجل المصـاغ من الفضـة وهـو يحصـد من زهـر الدجى نرجسـا وفيـه ألـوان الفضـة والزهـر والنرجس .

وهـكذا نجـد فى معظـم تشبيهاته الحسية ألوانـاً متعددة نقشـت بإتقـان ، فبـدت كأنهـا صـور مجسمة فى لوحات فنية ، وبهـذا امتـازت معظـم صـوره ، ووسمت بالطـرافة .

* * *

ومع تلوين صـوره بألـوان الطيف نجـد فى بعضها نـدرة بمـا فيهـا من تفصـيل ، أو جمـع بين المتباعدين فى الجنس مـع ظهـور العلاقة ، تأمـل قـوله يصف مقـلة بازى الصيد (٥٤) :

---

٥٤ ـ انظـر الأبيات فى ديوان أشـعار الأمـير ابى العباس عبد الله ابن المعتـز جـ ٢ ص ١١٠ .

غـدوت فى ثوب من الليـل خـلق
بطـارح النظـرة فى كـل أفـق
ذى منسر أقنى إذا شـك خـرق
ومقـلة تصـدقه إذا رمـق
كأنهـا نرجسـة بـلا ورق
تنشـب فى الديباج حتى ينفتـق

فى الشـطر الأول شـبه الليـل وقـد مزقته تباشير الصباح بالثـوب الخلق ، ثـم شـبه عيـن البـازى إذ يحيط بهـا الريش الملون بالنرجسـة التى لا ورق لهـا • ووجـه الشـبه الهيئـة الحاصلة من اجتمـاع الشـكل المستدير بين النقش الجميـل ، وفى البيت الأخـير ينفى عن النرجسة الـورق ، لأنـه لا نظـير لـه فى المشـبه ، ثـم يصـف النرجسة بأنهـا نشـبت فى الديبـاج حتى انخـرق ، فبقيت وسـطه وهـو محيـط بهـا حتى يعطيهـا ما يحيط بعين البـازى من ريش ناعـم منقوش ، وبهـذا التفصيل حقـق التشـبيه •

ومنـه قـوله :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى
نطـير غـرابا ذا قوادم جـون

« شـبه ظـلام الليـل حين يظهـر فيـه ضـوء الصـبح

بأشخاص الغربان ، ثم اشترط أن يكون قوادم ريشها بيضاء ، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها من حيث يلى معظم الصبح وعموده لمع نور يتحيل منها فى العين كشكل قوادم بيض ، وتمام التدقيق فى هذا التشبيه أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها ، ثم لما راعى ذلك فى التشبيه ابتداء راعاه آخرا حيث قال — نطير غرابا — ولم يقل — غراب يطير ونحوه — لأن الطائر إذا كان واقعاً فى مكان فأزعج ، وأطير منه ، أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه ، وأدعى له أن يستمر على الطيران حتى يصير الى حيث لا تراه العيون » (٥٥) .

وفى كتب البلاغة شواهد كثيرة من هذا النوع لابن المعتز ، وهذا يدل على دقة ملاحظاته ، لأن التفصيل فيه تدقيق بحذف شىء أو إضافة حتى يتحقق التشبيه .

ومن صوره التى جمعت بين متباعدين فى الجنس قوله يشبه أذن كلب الصيد (٥٦) :

---

(٥٥) بغية الايضاح ج ٣ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٥٦) انظر البيت فى ديوان أشعار الأمير ابى العباس عبد الله ابن المعتز ج ٢ ص ١١٠ .

بـأذن سـاقطة الأرجـاء
كـوردة السوسـنة الشـهلاء

شـبه أذن الكلب الساقطة الأرجـاء بوردة السوسنة الشهلاء . فـأين هـذه الأذن من وردة السوسنة ، فهمـا متباعدان جنسـاً ، ولكنـه جمـع بينهمـا فى تشبيه بديـع .

وتأمـل قـوله (٥٧) :

وتـرى الثريـا فى السماء كأنهـا
بيضـات أدحـى يلحـن بفدفـد

وقـوله (٥٨) :

كـأن الثريـا فى أواخر ليلهـا
تفتـح نـور أو لجـام مفضض

وقـوله (٥٩) :

فناولنيهـا والثـريا كأنهـا
جنى نرجس حيا الندامى به الساقى

---

٥٧ ـ انظـر البيت فى اعجـاز القـرآن للباقلانى ص ٣٣ ، وفى ديـوانه : بيض بأدحى .

٥٨ ـ انظـر ديـوان المعـانى ج ١ ص ٣٣٦ .

٥٩ ـ انظـر البيت فى ديـوان ابن المعتـز ص ٢٣٩ .

وقـوله (٦٠) :

وقـد سـقانى المـدام والصـ
ـبح بالليـل مؤتـزر
والثريـا كنـور غصـ
ـن على الأرض قـد نشـر

تجـد تشبيهات فيهـا جمـع بين متبـاعدين فى الجنس ، فقـد جمـع فى الأول بين الثريـا وبيضـات أدحى ، ولمـا رأى فى الثـريا لمعـاناً وبريقاً تلمس وجـود ذلك فى المشـبه بـه فوصفه بأنـه (يلحـن بفدفـد) ليتـم الشـبه • وفى الثـانى جمـع بين الثـريا وتفتـح النـور ، والنجـام المفضض ، ووصـف اللجـام بالمفضض أتـم الشـبه • وفى الثـالث جمـع بين الثريـا وجنى النرجس • وفى الرابـع جمـع بين الثريـا ونـور غصـن قـد نشـر •

ومنـه قـوله يصـف البـرق (٦١) :

إذا تبـدى البـرق منهـا خلتـه
بطـن شجاع فى كثيب يضـطرب
وتـارة تبصـره كـأنه
أبلـق مـال جـله حيـن وثـب

---

٦٠ ـ انظـر ديـوانه ص ٢٢٢ .
٦١ ـ انظـر البيتين فى الأسـرار ج ٢ ص ١٩ .

فى البيت الأول شبه بياض البرق ببطن شجاع فى البياض والاضطراب ، وهو تشبيه غريب فيه جمع بين متباعدين . البرق وبطن شجاع ، وفيه تفصيل ، لأنه رأى فى البرق حركة اضطراب فطلبها فى المشبه به فوصف الشجاع بأنه يضطرب فى الكثيب .

وإن كان هذا التشبيه يقبض النفس ، ويثير فيها أحاسيس الخوف بذكر الشجاع (الأفعى) إلا أنه يبرز قدرة الشاعر على اكتشاف العلاقات بين الأشياء ، وعلى سعة تأملاته فى الجمع بين الأشياء المتباعدة .

وفى البيت الثانى يجوز أن يكون المشبه بياض البرق فى سواد الغمام ، والمشبه به بياض الفرس الأبلق فى سواد الجل ، وعلى هذا يكون التشبيه مركبا ، ويجوز أن يكون المشبه البرق وحده والمشبه به بياض الأبلق دون دخول لون الجل فيه ، وعلى هذا يكون معنى (مال جله) سقط عنه ، والأخير هو الأقرب الى المعنى ، لأن الشاعر يريد — على حسب فهمى — أن البرق يلمع فجأة كما يظهر بياض الأبلق بغتة عند وثوبه وسقوط جله .

يقول عبد القاهر الجرجانى (٦٢) : « فالأشبه فيه أن

---

٦٢ — المصدر السابق ص ١٩ ، ٢٠ .

يكون القصد الى تشبيه البرق وحده ببياض البلق دون أن يدخل لون الجل فى التشبيه ، حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق فى سواد الغمام ، بل ينبغى أن يكون الغرض بذكر الجل أن البرق يلمع بغتة ، ويلوح للعين فجأة فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه » .

* * *

قلت إن عبد الله بن المعتز يوظف صوره فى تصوير المحسوسات الموشية بألوان الطيف .

أما التشخيص فبه يمنح الجماد الحياة ، فتشعر كأنك أمام كائن حى تسرى الحياة فى جوارحه ، تأمل الأباريق والكؤوس والفقاقيع فيها فى قوله (٦٣) :

باتت أبارقنا حمرا عصائبها
بيضا ذوائبها غص الحلاقيم
رواكعا كلما حث السقاة بها
تلقى الكئوس بتفكير وتعظيم
أبقى الجديدان من وجودهما عجبا
لوناً ورائحة فى غير تجسيم

---

٦٣ — انظر الأبيات فى ديوان أشعار الأمير أبى العباس عبد الله بن المعتز ج ١ ص ١٨٦ ، د. بديع شريف .

كـأن فى كأسها والمـاء يقرعهـا
أكارع النمل أو نقش الخـواتيم

فالأباريق أشخاص حمـر العصـائب ، بيض الذوائب ، مترعة الى الحلاقيم ، ركـع مثـل عباد الأوثان الذين يعظمون معبودهم ، ويخـرون للأذقـان •

فشخص الأباريق فجعلهـا أناسـاً حمـر العصائب ، بيـض الذوائب ، مترعـة الى الحلاقيـم ، ركعـا • وجعـل الفقاقيع فى الكؤوس تـدب فيهـا الحيـاة ، فهى فى حركتهـا مثـل أكـارع النمـل ، أو نقش الخـواتيم •

وتأمـل التشخيص فى قـوله (٦٤) :

فزوبعـة من بنـات الريـاح
تريك على الأرض شـيئا عجـب
تضـم الطـريد الى نحرهـا
كضـم المحبـة من لا يحـب

شخص الزوبعـة فجعلها امـرأة تضـم الطـريد الى نحرها ، ثـم شـبه ضـم الزوبعة للطريد بضـم المحبـة من لا يحـب ، وهـذا تشخيص نـادر لا يقـدر عليـه إلا خيـال فنـان حـتى يعرضـه على أنظـارنا بهـذا العنـاق الغـريب •

---

٦٤ — انظـر البيتين فى المصـدر السـابق ص ٤٥٥ .

وتأمل قوله (٦٥) :

مات الهوى منى وضاع شبابى
وقضيت من لذاته آرابى
وإذا أردت تصابيا فى مجلس
فالشيب يضحك بى مع الأحباب

إذ « جعل المشيب يضحك ضحك المتعجب من تعاطى الرجل مالا يليق به ، وتكلفه الشىء ليس هو من أهله » (٦٦) .

وقال :

والورد يضحك من نواظر نرجس
قذيت وآذان حيها بممات

« جعل الورد كأنه يعقل ويميز ، فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته وإدبار دولته وبرو امارات الفناء فيه .

وأعاد هذا الضحك من الورد فقال :

ضحك الورد فى قفا المنثور (٦٧)
واسترحنا من رعدة المقرور

---

٦٥ ـ انظر البيتين فى اسرار البلاغة ج ٢ ص ١٥٦ .
٦٦ ـ المصدر السابق نفس الصفحة .
٦٧ ـ نوع يسمى بالخيرى .

أراد إقبال الصيف وحسر الهواء ، ألا تراه قال بعده :

واستطبنا المقيل فى برد ظل
وشممنا الريحان بالكافور
فالرحيل الرحيل يا عسكر اللذات
عن كل روضة وغدير

فهذا من شأن الورد الذى عابه ابن الرومى فى قوله :

فصل القضية أن هذا قائد
زهر الرياض وأن هذا طارد

وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكا ضحك من استولى وظفر وابتز غيره ولاية الزمان واستبد بها » (٦٨).

* * *

وابن المعتز حينما يصور ليوضح فكرة يرسم لها صورة تبدو كأنها لوحة نقشت بيد فنان ماهر ، تأمل قوله يصف سحابة (٦٩) :

كأن سماءها لما تجلت
خلال نجومها عند الصباح

---

٦٨ أسرار البلاغة جـ ٢ ص ١٥٥ تعليق د. خفاجى .

٦٩ ـ انظر البيتين فى ديوانه ص ٣٠٥ ، وفى غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى بن ظاهر المصرى ص ٤٣ ، عجز البيت الثانى (تفتح فيه نور الأقاحى) .

رياض بنفسج خضل نداه
تفتح بينه نور الأقاحى

تجد نفسك أمام لوحة فنية رائعة ، ترى فيها صورة السماء فى الصباح مع نجومها فى صورة رياض البنفسج ، وقد تفتح بينه نور الأقاحى .

وقوله (٧٠) :

اصبر على مضض الحسو
د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها
إن لم تجد ما تأكله

فالمشبه هو الحسود الذى يهمله المحسود ، ولا يظهر له من التألم ما يشفى غليله فيشتعل غيظه حتى يورده موارد الهلاك . والمشبه به النار التى لا تمد بالوقود فتأكل نفسها فتصير رماداً .

ووجه الشبه إسراع الفناء لانقطاع ما فيه مدد البقاء . فتجد صورة الحسود وما وصل إليه فى صورة النار التى لا تمد بالوقود فتتحول الى رماد .

ومنه قوله (٧١) :

---

٧٠ — انظر البيتين فى الأسرار ج ١ ص ٢٠٠ .
٧١ — المصدر السابق ج ٢ ص ٥٠ .

كـأنه وكـأن الكـأس فى فمـه
هـلال أول شهر غـاب فى شـفق

شـبه هيئـة الكـأس وقـد غـاب جـزء منـه فى فـم الغـلام بهيئـة الهـلال وقـد غـاب جـزء منـه فى الشـفق ، ووجـه الشـبه الهيئـة الحاصلة من مغيب شىء أبيـض مشـرق مقـوس فى غشـاء أحمـر منبسـط .

ويعـلق عبد القاهـر الجرجـانى على البيت بقـوله : « لـم يقصـد أن يشـبه الكـأس على الانفـراد بالهـلال ، والشـفة بالشـفق ، بـل أراد أن يشـبه مجمـوع الصـورتين » .

فـابن المعتـز يريـد أن يوضـح صـورة الكـأس وهى فى الفـم فرآهـا فى صـورة هـلال أول شـهر غـاب فى شـفق ، فبـرزت مرسومة بوضـوح ، فحقق غرضه وأبـدع فى التصوير .

لقـد اظهـر ابن المعتـز مهـارة واسـعة فى التصوير البيانى وبخاصـة التشـبيه ، إذ استخرج منـه — التشـبيه — صـورا وأشـكالا لا تحصى ، وابتعـد بالتصـوير عن الفلسفة والتعقيـد والتصـنع ، ومهـارته فى التشبيه لـم تتـح لشـاعر من قبـله ، فانظـر الى خيـاله يصـف سـباق الخيـل :

خرجـن وبعضهن قـريب بعـض
سوى فـوت العـذار أو العنـان
ترى ذا السـبق والمسبوق منهـا
كمـا بسـطت أناملهـا اليـدان

شبه تفاوت الخيل فى السباق بتفاوت الأنامل عند بسط اليدين ، وهذا خيال رائع فيه صياغة سلسة يشع فيها الجلال والندرة .

وتأمل خياله فى الهلال :

أنظر الى حسن هلال بدا
يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر الدجى نرجسا

فهو يتخيل الهلال منجلا قد صيغ من فضة والسماء حقل من نرجس ، لا من نجوم ، وهذا المنجل يحصد نرجسا بأضوائه وأنواره .

فصور ابن المعتز تبدو فيها الطرافة والمتعة الحسية والذهنية ، والاغراب فى تقصى وجوه التشبيهات والإبداع فى خلق العلاقات ، هذه سمات بيانية يندر وجودها مجتمعة فى كثير من الشعراء .

وقد أدرك هذه السمات أحد معاصريه فلام ابن الرومى قائلا (٧٢) : « لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ قال : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى صفة الهلال :

---

٧٢ — العمدة ج ٢ ص ٢٢٥ .

فانظـر إليـه كرورق من فضـة
قـد أثقلتـه حمـولة من عنبـر

فقـال : زدنى ، فأنشـده :

كـأن آذ ريونهـا
والشـمس فيـه كاليـه
مداهـن مـن ذهـب
فيهـا بقـايا غاليـة

فصـاح : واغـوثاه ، يالله ، لا يكلف الله نفسـاً إلا وسعها ، ذلك إنمـا يصـف ماعـون بيتـه لأنـه ابن الخلفـاء . وأنـا أى شىء أصـف ، ولكن أنظـروا إذا وصفت ما أعـرف أين يقـع الناس كلهـم منى ، هـل قـال أحـد قـط أمـلح من قـولى فى قوس الغمـام :

وقـد نشرت أيـدى السحاب مطارفـاً
على الأرض دكناً وهى خضر على الأرض
يطرزهـا قـوس الغمـام بأصـفر
على أحمـر فى أخضـر وسـط مبيض
كأذيـال خـود أقبـلت فى غـلائل
مصـبغة والبعض أقصـر من بعـض

وقـولى من قصـيدة فى وصـف الرقـاقة :

ما أنس لا أنس خبـازا مـررت بـه
يدحـو الرقاقة وشـك اللمح بالبصـر

ما بيـن رؤيتهـا فى كفـه كـرة
وبيـن رؤيتهـا زهـراء كالقمـر
إلا بمقـدار مـا تنـداح دائـرة
فى صفحة المـاء يـرمى فيـه بالحجـر

وهـذا القـول يـدل على أن تشبيهات ابن المعتـز أوفـر وأخصـب وأنـدر وأبهـر وأكثـر استمتاعاً للحـس والعقـل .

ويعـلق ابن رشـيق عـلى هـذا الكـلام بقـوله (٧٣) : « وهـذا كـلام — إن صـح عن ابن الرومى — فـلا أظـن ذلك أمـرا فيـه الدرك ، لأن جميـع ما أراه ابن المعتـز أبوه وجـده فى ديارهـم ، كمـا ذكـر أن ذلك عـلة للاجـادة وعـذر فقـد رآه ابن الرومى هنـالك أيضـا ، اللهـم إلا أن يريـد أن ابن المعتز ملك قـد شـغل نفسـه بالتشبيه ، فهـو ينظـر ماعـون بيتـه وأثاثـه فيشـبه بـه ما أراد ، وأنـا مشغول بالتصـرف فى الشعر طالبـاً بـه الـرزق » .

وإن تعجب فعجب أن يقـول العقـاد وهـو شـاعر كـاتب ناقـد : لـو أن ابن الرومى كـان متـأخر الوجـود عن ابن المعتز ما أخـذ منـه شـيئا ، أو لـكان أفسـد سليقته بالأخـذ عنـه .

فهـو من أصـحاب التشبيهات التى تـدور على الزخـرف وتستفيد نفاستها من نفاسـة المشـبهات (٧٤) .

---

٧٣ — العمـدة جـ ٢ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
٧٤ — انظـر ابن الرومى ص ١٨٧ .

وهـذا حـكم فيـه تعصـب واضـح لابن الرومى ، وإجحاف بيـن لابن المعتـز ، فأوصاف ابن المعتـز وتشبيهاته لـم تقتصـر على ماعـون بيتـه كمـا يقـول ابن الرومى ، أو على التشبيهات التى استفادت نفاستها من نفاسـة المشبهات كمـا يقـول العقـاد ، فقـد وصـف ابن المعتـز الحـدائق والمـروج والطبيعة ، ونفـذ الى دقـائق أسرارها ، ووصف النـوق العراب ، والخيل المسومة ، والطيـور وغـرائز الحيـوان ، ومواهب الإنسـان فى الشـجاعة والـكرم والخـلق الرفيـع ، ووصف الحـرب وقـراع السيوف ، وقـد منـح اللغـة العربية فى هـذا الوصـف ثـروة عظيمـة فى تصـوير المعـانى .

وإذا كـان ابن المعتـز وصـف ماعـون بيتـه فيستغيث ابن الرومى من هـذا الوصف الجميـل ، وإذا كانت تشبيهاته أخـذت نفاستها من نفاسـة المشبهات كمـا يقـول العقـاد فـإن هـذا وذاك لا يقـلل من عبقـرية ابن المعتـز التصويرية ، وإنمـا يدل ذلك على دقـة الملاحظة ، لأن تلك الأشـياء كلهـا أو بعضها رآهـا كثـير من الشعراء فى بيـوت الخلفـاء والأمـراء عند مدحهـم أو عـرض الشـعر عليهـم .

هـذا ، وإن ابن المعتـز وصـف أشـياء بخيـال غير منتزع

من ماعـون بيتـه والمشبهات فيهـا ليسـت نفيسـة ، فهـو يصف (سـر من رأى) حين صـارت خـربة (٧٥) .

مـاتت كمـا مـات فيـل
تسـل منـه العظـام

فهـذا خيـال بعيـد التفكير ، عميـق فى الوصف ، فمـاذا يبقى من الفيـل إذا سـلت عظـامه ؟ هـكذا أصبحت تلك البلدة ، ذهب سلطانها ، وتداعت قصورها ، ففقدت القـوة والحيـاة مثلمـا ذهبت من الفيـل القـوة والحيـاة ، هـذه كـومة من الخـرائب وذاك كـومة من لحـم وجـلد .

وانظـر الى هـذه الصـورة التى رسمها للفجـر والليـل فى قـولـه (٧٦) :

وقد دفـع الفجر الظـلام كـأنه
ظليـم على بيض تكشف جانبـه

فهى صـورة لـم تكن بين جـدران قصـر أبيـه ، أو فى قصـور الخلفـاء الذين نشـأ فى ظلهـم ، إنهـا فى صحراء ، فيهـا

---

٧٥ ـ انظـر البيت فى ديـوان اشعار الأمـير ابى العبـاس عبد الله ابن المعتـز ج ١ ص ١٩٢ .

٧٦ ـ انظـر البيت فى المصـدر السـابق نفس الصـفحة .

النعـام ، فالفجـر يدفـع الظـلام فيبـدو فى صـورته الطبيعية الجميـلة كـأنه نعـامة حاضنة بيضـها تزحزحت عنـه قليـلا فانكشف جـانب منـه ، فالليـل مكلكل على الـكون رفـع أذياله الفجـر فبـدا منظـر عجيب ، إظـلام وإصـباح حـددته طبيعة الوجـود ، ونعـامة حاضـنة بيض تحركت عنـه قليـلا ، فحددت الحـركة الغريزية بين الجنـاح المكلكل وبيـاض البيض فبـدا منظر عجيب . وكلتـا الحالتين تريك منظـراً طبيعيـاً رائعـاً .

* * *

خاتمـــــة

إن دراسـة الصـور البيانية تمتـع العقـل والوجدان معـاً بمـا تثـيره فى نفـوس المتلقين من خيـال وتأملات ، وهـذه المتعـة تزيـد وتنقص تبعـاً لصناعة الشـعراء البيانية والصياغية ، إذ إنهـم يختلفون قـوة وضعفا وتأثـيرا تبعـاً للعوامل المؤثـرة فى تكـوين الصـورة كالعاطفـة والبيئـة والثقـافة ، والعـرف : اللغـوى والاجتماعى ، وملكتهـم البيانية ، وقدرتهـم فى كشـف العلاقـات بين الأشـياء .

وقـد مـدح البلاغيون ألوانـاً من هـذه الصـور وأشادوا بهـا ، وذكـروا لهـا حـدودا تميزهـا عن غيرهـا ، كالصور التى

تجمع بين شيئين متباعدين فى الجنس مع علاقة بينة ، والصور التى تحتوى على عنصر التفصيل ، والصور التى تضمنت عنصر التخييل ، والصور التى تجسم المعنى وتنقل المعقول الى المحسوس . وهم حينما ذكروا ذلك ذكروه على سبيل التمثيل لا الحصر ، لأنه كما يقال : الجمال والبيان لا نهاية لهما .

ويمكن أن نضيف الى ما ذكروه تشبيهات المحسوسات إذا جاءت موشية بلونين فأكثر من ألوان الطيف ، بمعنى أن الصورة البيانية تتضمن كلمات ذات دلالات ألوانية كما لمسنا ذلك فى كثير من تشبيهات ابن المعتز ، لأن تلك الألوان تبرزها فى ثوب أنيق ، وشكل بديع .

ويمكن إضافة صور التشخيص إذا جاءت معبرة عن أحاسيس الشعراء بما تعكسه على الأشياء المشخصة كما وضح لنا من تشخيص ابن الرومى للطبيعة ، إذ رأيناه يخلع عليها أفراحه وأتراحه . وهذا يهز وجدان السامعين ، ويقودهم الى مشاركة الشعراء فى أحاسيسهم .

ويمكن أن نضيف — أيضا — الصور التى توظف لتوضيح الفكرة برسم صورة لها ، سواء تضمنت عنصر التفصيل أولا ، لأن التشبيه يعتمد على الرسم ، ونحن ندرك الأشياء

المصورة ، ونتأثر بها أكثر من تأثرنا بالفكرة المجردة ، وذلك عن طريق الدقة فى الصورة ، أو الابتكار فيها ، فإذا تضمنت عنصر التفصيل تكون جمعت بين الحسنيين .

هذا ، وقد تبين لنا أن الشاعرين : ابن الرومى وابن المعتز أتيا على كل ما هو حسن من الصور البيانية ، فلهما ملكة بيانية ، وقدرة على التصوير والتمثيل ، فكل منهما شبه فأصاب ، وتجوز فأجاد ، وتصيد الشبه مما لا يتوقع ، واستمد صوره من واقعه ، ومما تراه عينه ، وابتعد عن الغموض والتعقيد ، فجاءت واضحة بينة ، تبرز فيها الأحاسيس ، وتتبلور فيها المشاعر ، وتبعث مثلها فى نفوس المتلقين .

وكل منهما وظف صوره البيانية توظيفا يتلائم مع الفكرة والوجدان ، فجاء تشخيص ابن الرومى موضحا أحاسيسه ، مبرزا إياه فى المشخصات ، ففى مقام الآلام التى يحس بها تنعكس هذه الآلام على المشخصات كما لاحظنا ذلك فى وصفه للغروب ، وفى مقام النشوة والاعجاب تتحسس ذلك فى المشخصات كما فى وصفه للنساء ، وهكذا تبرز أحاسيسه فى المشخصات .

وفى مقام توضيح الفكرة برسم صورة لها تخرج صوره محكمة فى لوحة فنية تتعانق فيها الحركة مع الشكل والظلال ، كصوره فى كل من (جحظلة) و (الأحدب) وصانع الرقاق والرجل المخلاف .

وفى تصويره للمحسوسات دقة وتفصيل فإذا وصف اللون أتى به ذاكياً متوهجا ، وإذا وصف حاسة اللمس وضع أيدينا على الموصوف ، وإذا وصف حاسة الشم وصلت الى أنوفنا .

وجاء تصوير ابن المعتز للمحسوسات تصويرا مزخرفا بما تضمنه من ألوان متنوعة تجذب الأبصار ، وتنبه الألباب . وقد ذكرنا أمثلة كثيرة لذلك .

وإذا وضح الفكرة برسم صورة لها تبدو كأنها لوحة نادرة رسمت بيد فنان ماهر وقد ضربت أمثلة لهذه الصور .

وتشخيص ابن المعتز لا يقل روعة وجمالا عن تصوير ابن الرومى ، وإن كان قليلا بالنسبة له .

وتشبيهات ابن المعتز كثيرة ومتنوعة ، سجلت حضارة عصره وازدهاره ، وفيها استمتاع وإغراب فى تقصى وجوه الشبه ، وإبداع فى خلق العلاقات .